



الغراب

احمد بوزفور

(ديوان السندباد)

في الحجرة الأولى كنت أنا، وفي الحجرة الثانية أمي وإخوتي، أما في الزريبة المسقوفة فكانت أربع معزات وجداوهن الثلاثة، ومن السماء كان الثلج يسقط أبيض في صمت. "تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير... تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير... باسم الله الرحمان الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير".

جلباب أبي من الصوف الأسود، وفيه خيوط طويلة بيضاء رقيقة ومتوازنة، واسع وفضفاض ولكنه دافئ، وأنا أتكوم فيه "تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير" "تبارك" ثمّنّ طويل مكتوب على جهتي اللوح معاً، والثلج يسقط أبيض في صمت. أما أبي فكان في الغابة يقطع أغصان "الكريش" ذات الأوراق القصيرة الشائكة الأطراف لتأكلها المعاز في الدار. الثلج يسقط، والبرد، أختي لم تسرح بالمعز، وأنا لم أذهب إلى الجامع، و"عاق عاق.. عاق" غراب، قفزت إلى النافذة الخشبية وفتحتها فرأيت البياض، الهضبة المقابلة كانت بيضاء تماماً، والسماء بيضاء أيضاً، وبينهما الصمت والبرد، ولا غراب. أقفلت النافذة ورجعت متعثراً في جلباب أبي إلى الحصيرة، لأقرأ "تبارك".

دندنة الحديث تدخل خافتة مكتومة ودافئة، شمרת أذيال الجلباب وذهبت إلى الحجرة الثانية.

أمي تجلس على قطعة مطوية من حصير قديم إلى جانب "الكاثون" تُسَخَّنُ الشعير في المقلاة الواسعة، وأختي الكبرى تهرس الشعير المسخّن في مهراس خشبي طويل، وكلما هبطت يد الفأس الخشبية على كومة الشعير في المهراس ترتفع "هس" حادة السين من فم أختي الكبرى، أما الصغرى التي ترعى المعاز فكانت تسرح شعرها القصير بمشط أصهب من العظم، وتغمس أصابعها بين الحين والحين في إناء طيني صغير ثم تخلل شعرها بزيت الزيتون المخلوط بـ "دواء البرغوث"، وأحياناً تظفر أصابعها بقملة سوداء فتضعها على ظهر المشط العظمي ثم تفقأها بظفر إبهامها.

رفعت أمي عينيها، وأبتسمت حين ظهّرت في الباب، ونادتني !
- "آجي أوليدي تسخن".

جلست على فخذي الأيسر أمام النار، فمدت يدها إلى شعر رأسي، وسمعت أخت الصغرى تطرق بلسانها ثم تقول:
- "عُوْعَش.. مُمُو يجلس في حجر أمو".

صرخت فيها : "ومالك انت؟... أمي".

ولكني انزلت بالتدريج إلى قطعة الحصير المطوية، فحذرتني أمي من أن أحرق جلباب أبي بالنار، وقالت أختي الكبرى وهي تباعد بين دقات الفأس في المهراس:

- "إييه... وابتسمت حين ظهّرت في الباب، ونادتني !

- "آجي أوليدي تسخن".

- "عُوْعَش.. مُمُو يجلس في حجر أمو".

- "إييه... وابتسمت حين ظهّرت في الباب، ونادتني !

- "ومالك انت؟... أمي".

- "عُوْعَش.. مُمُو يجلس في حجر أمو".

وتدخلت أختي الصغرى:

- أمي.. وكيف يتزوج من نصرانية؟ أو أسلمت؟ فردت أمي:

- هي أسلمت وهو كفر، الذي يخرج من بلاده يفعل العجائب.

مددت يدي إلى ذقن أمي لأحول وجهها إلي، وقلت:

- أمي.. هل صحيح أن الغراب كان رجلاً ومسح؟
- فطرقعت أختي الصغرى بلسانها وأسرعت تقول:
- ألويل؟!... هناك "بَلَارَج" الذي توضع باللبن.

صرخت فيها محتداً: الغراب أيضاً مسح، أنا قرأت عنه في القرآن، مسح أولاً يا أمي؟؟

حكّت أمي شعر رأسي بأناملها وابتسمت وهي تنقل نظرها بيني وبين أختي الصغرى ثم قالت:

- قالوا يا وليدي إن الطيور كلها كانت بني آدم ومسخت، وقالوا إن الله حين أراد أن يمسح النملة أعطاها جناحين.

- كانت امرأة.

- كانت امرأة يا وليدي وتزوج عليها رجلها، فرفعت يديها إلى السماء وقالت: اللهم أعطني جناحين لأطير بهما من هذه المحنة، فأعطاها الله جناحين وطارت، ولأنها سمحت في أولادها وتركتمهم ربائب مع الناس مسخها الله نملة.

- والغراب.

- والغراب مسخه الله أيضاً و...

ورأيت الغراب يفسخ تكة سرواله الأزرق القصير الرجلين ويقرفص على الأرض مرخياً جلبابه الأسود ويجانبه سطل من

الماء الدافئ فوقه بخار فيغرف الماء بيده اليمنى ويرميها إلى حجره المختفي بين فخديه ثم يحك بيده اليسرى.. وصوت الماء المرشوش يمتزج مع صوت السطل القصديري المتزحزح باستمرار، ومع صوت الغراب وهو يبسم ويستغفر، وكان الماء الدافئ لبناً، وكان للغراب شارب كث وأنف طويل، وكانت أمي تتابع الحديث مع أختي الكبرى، وحين رميت بنظري إلى طرف الحجرة المدخنة السقف رأيت أختي الوسطى مريضة مضطجعة تحت البطانية البيضاء ذات الخطوط الغليظة الحمراء، وجهها إلى الحائط وهي تستمع إلى الحديث ساكنة.

وقفت واتجهت نحو الباب، فقالت أمي :

- هات لوحك واقراً هنا حتى لا تبرد. قلت :

- سأخرج لأرى هل أبي قادم.

التلج كف عن السقوط ولكن الأرض بيضاء، والسماء أيضاً، ولا أحد يمشي في الخارج، الطرق اختفت تحت الثلج، وعلى

الهضبة البيضاء الناصعة الناعمة كانت خمسة غريبان سود واقفة، ثلاثة مجتمعة، وعلى مقربة منها اثنان آخران. أخذت من وراء الباب الخارجي حبلاً رقيقاً من الدوم، رفعت به الجلباب الأسود وحزمته على وسطي، وحملت في يدي اليمنى عوداً قصيراً ثم قصدت الهضبة وأنا أضرب الثلج بالعود، قبل أن أصل كانت الغريبان قد حلفت في السماء "عاق...عاق" "عاق...عاق"، بقيت تدور فوق رأسي في الفضاء الأبيض دون أن تنزل أو تذهب، صرخت فيها:

- غراب... الغراب غراب... حُحَلَّ الجَلَابُ.

ورميتها بالثلج، فسقط الثلج متناثراً على الأرض أبيض مع القعقات السوداء، وقلت في نفسي: (لا بد أن تدوخ وهي تدور

هكذا في الجو ثم تسقط)، وفيما أنا أنظر إليها وقبل أن أستدير عانداً إلى الدار، برز أبي أمامي. هو الآخر كان يحزم جلبابه بحبل ويحمل على ظهره حزمة كبيرة من أوراق الكريش القصيرة الشانكة الأطراف ويتدلى منها على صدره شاقوره الذي يقبض عليه بيده اليسرى. قبلني على جبتي بشفتيه الباردتين وشاربه المثلج، وحملني في يده اليمنى، وتابع المشي وهو يقول منقطع الأنفاس، وحول قمه وأنفه سحابة صغيرة من البخار:

- "وليدي... جيت تلاقيني؟ سعدي بوليدي... بردت؟ سأسخن وليدي أمام النار وسأأكل معي الخبز والزيت،

وسأصنع له براد شاي بالشيبية، وسيشرب وليدي الشاي في كأسه المزوق... و...".

قاطعت أبي : "أبا... صحيح أن الغراب كان رجلاً ومسح؟".

أجاب أبي : "يُكُونُ أوليدي يُكُونُ... هذا الزمان يمسح اللي ما يتمسح".